الفصل الثاني

الرغبة في بدائل

7

هناك فـارق أساسي بين جاذبية الحـركات الجماهيرية وجاذبيـة المنظمات العمليـة (كالأحزاب السياسيـة التقليدية والنقابات وتجمعات المهن الحرة).

تقـدم المنظمة العمليـة لأعضائها فرصًـا لتطوير الذات، وتكمـن جاذبيتها في تحقيق المصلحة الذاتية لأعضائها. وعلى النقيض من ذلك، نـرى أن الحركة الجماهيريـة، خاصة في مرحلتها الأولى النشطة، لا تجذب أولئك الذين يحبون أنفسهم، ويحرصـون على تطويرها، بل تستميـل أولئك الذين يودون أن يتخلصوا من أنفسهم نهائيًا. تستطيع الحركة الجماهيرية أن تجـذب أتباعًا وتحتفظ بهم، لا لأنها تلبـي الحاجة إلى تطوير الذات، ولكن لأنها تلبي الشوق إلى الخلاص من الذات.

يصعب على الذين يعتقـدون أن حياتهم فسدت تمامًا أن يستهويهـم تطوير أنفسهم: مهمـا كان احتمال حصولهم على فرص أفضل، فإن هـذا لا يحفزهم إلى بذل جهود خارقة، ولا يدفعهم إلى الولاء الأعمى. يعـدّ هؤلاء المصلحة الفردية شيئًا مشبوهًـا شريرًا، لا يتسم بالنزاهة، ولا يمكن أن يجلب الحظ. وكل ما يبـذل لتطوير الذات يبدو في نظر هؤلاء عملًا محكومًا

عليه بالفشل: لا شيء ينطلق من النفس (التي يكرهونها) يمكن أن يكون جيدًا ونبيلًا. إن شوقهم العميق ينصب على حياة جديدة، وميلاد جديد، وثقة جديدة، أو على الأقل أمل جديد، ومعنى جديد لقيم الحياة، وهذا كله لا يتحقق إلا بالانتماء إلى قضية مقدّسة. إذا انضم هؤلاء الأعضاء إلى الحركة مؤمنين بها فإنهم سيولدون ولادة جديدة في مجتمعنا الجديد المترابط. حتى عندما يكتفون بالتعاطف مع الحركة، فإن التماهي مع جهود الحركة ومنجزاتها ومستقبلها يمنحهم الشعور بالكرامة والثقة.

إن المحبطين يجدون في الحركة الجماهيرية بدائل: إما لأنفسهم بأكملها أو لبعض مكوناتها، الأمر الذي لا يستطيعون تحقيقه بإمكانياتهم الفردية.

قد نجد بين الأتباع الذين يبادرون إلى الانضمام إلى حركة جماهيرية عددًا من المغامرين الطامعين في تحسين أوضاعهم والحصول على الشهرة أو القوة. وفي الوقت نفسه، قد نجد درجة من الإخلاص الذي ينكر الذات والولاء الأعم عند بعض الذين يلتحقون بالشركات والأحزاب السياسية التقليدية وبقية المنظمات العملية. إلا أن الحقيقة هي أن المنظمة العملية لا تستطيع البقاء ما لم تلبّ المصالح الفردية

لأتباعها، بينما تعتمد قوة الحركة الجماهيرية وحيويتها على قدرتها على تلبية رغبة أتباعها في محو الذات. وعندما تبدأ حركة جماهيرية في اجتذاب أناس لا تهمهم سوى مصالحهم الذاتية، فمعنى هذا أنها اجتازت مرحلتها الأولى النشطة، بمعنى أنها لم تعد معنية بإيجاد عالم جديد، بل بالحفاظ على الأوضاع الراهنة التي أوجدتها وحمايتها. يقول هتلر(*) «كلما زادت الوظائف والمناصب التي تقدمها الحركة كلما انخفض مستوى الأتباع الذين ينضمون إليها، وفي النهاية سيكون السياسيون الانتهازيون من الكثرة، بحيث لا يستطيع المجاهد القديم النزيه أن يتعرّف على حركته القديمة... وعندما يحدث هذا فإن رسالة هذه الحركة تكون قد انتهت»(1).

8

إن الإيمان بقضية مقدّسة هو - إلى درجة كبيرة - محاولة للتعويض عن الإيمان الذي فقدناه بأنفسنا.

(*) أسّس أدولف هتلر (1889 - 1945م) الحزب النازي الذي تبنى شعارات معادلة لليهود وللشيوعية، ووصل إلى السلطة في انتخابات حرة سنة 1933م، وبعدها حول هتلر ألمانيا إلى ديكتاتورية مطلقة مدججة بالسلاح وأدى غزوه لبولندا سنة 1939م إلى اشتعال الحرب العالمية الثانية التي انتهت بانتصار الحلفاء وانتحار هتلر. وقد كان هتلر مسؤولاً عن جرائم كثيرة ضد الإنسانية أبشعها إبادة ملايين اليهود في حمامات الغاز (المترجم).

(1) Adolph Hitler, Mein Kampf (Boston: Houghton Mifflin Company, 1943) , P. 105.

9

كلما استحال على الإنسان أن يدعي التفوق لنفسه، كلما سهل عليه أن يدّعي التفوق لأمّته، أو لدينه أو لعرقه، أو لقضيته المقدّسة.

10

ينزع الرجل إلى الاهتمام بشؤونه الخاصة، عندما تكون جديرة بالاهتمام. أما عندما لا تكون لديه شؤون خاصة حقيقية، فإنه ينزع إلى نسيان شؤونه التي فقدت معناها والاهتمام بشؤون الآخرين الخاصة. يعبر هذا الاهتمام عن نفسه بالغيبة والتجسس والفضول، كما أنه يتجه إلى اهتمام غير طبيعي بالشؤون المجتمعية والقومية والعرقية. إننا عندما نهرب من أنفسنا نلقي بثقلنا على عاتق جارنا، أو نطبق على عنقه.

11

إن اعتقادنا أن لدينا واجبًا مقدّسًا إزاء الآخرين كثيرًا ما يكون طوق النجاة، الذي نحاول بواسطته إنقاذ أنفسنا من الغرق. وعندما نمد يدنا نحو الآخر فنحن، في حقيقة الأمر، نبحث عن يد تنتشلنا. عندما تشغلنا واجباتنا المقدّسة نهمل حياتنا ونتركها خاوية بلا معنى. ولا شك في أننا عندما نستبدل

بأنفسنـا المنكفئة على ذاتها حياة بعيدة عـن الأنانية نكون قد حققنا قدرًا كبيرًا من احترام الذات. إن غرور منكري الذات، حتى عندما يظهرون بمظهر التواضع، لا حدود له.

12

من أهـم ما يجذب الناس إلى الحركـة الجماهيرية أنها تقـدم بديـلاً للأمل الفـردي الخائـب. وهـذه الجاذبية ذات فاعلية كبـيرة في المجتمعات التي تؤمن بضرورة التطور، حيث يبدو الغد شيئًـا مثيرًا، كما يصبح الإحباط أمرًا فظيعًا. يقول روشننج عـن ألمانيا في المدة التى سبقت هتلر: إن الشعور بأننا وصلنـا نقطـة الصفـر كان واحـدًا مـن أصعب الأشيـاء التي قاسيناها بعد الحرب (العالمية الأولى) التي خسرناها[1]. في المجتمعات الحديثة لا يمكن للناس أن يعيشوا بلا أمل، إلا إذا تم تخديرهـم وإبقاؤهم مبهوري الأنفاس نتيجـة الضغط المستمر. إن اليأسـ الذي تسببه البطالـة لا ينبع من خوف الفقر فحسب، وإنما مـن مواجهة مستقبل من الفـراغ. والعاطلون ينزعون إلى اتباع الذين يبيعونهم الأمل قبل اتباع الذين يقدمون لهم العون.

(1) Hermann Rauschning, The Conservative Revolution (New York: G. P. Putnam,s Sons, 1941), P. 189.

كثيرًا ما تُنتقد الحركات الجماهيرية؛ لأنها تخدّر أتباعها بأمل المستقبل، وتأخذ منهم متعة الحاضر. إلا أن الحاضر يبدو في نظر المحبط، قاسيًا لا تمكن معالجته حتى بالمتع وأسباب الراحة. إن الأمل هو السبيل الوحيد لإدخال القناعة والرضا في أذهان المحبطين[1].

13

عندما نجد إن اهتماماتنا الذاتية واحتمالات المستقبل لا تستحق أن نعيش من أجلها، نصبح في حاجة ماسة إلى شيء منفصل عن أنفسنا نحيا له. إن الإخلاص لحركة ما وإعطاءها الولاء المطلق لا يعدو أن يكون محاولة للتعلق بشيء يمنح حياتنا الفاشلة معنى وقيمة[*].

---

(1) Thomas Gray, Letters, Vol. l, P.137. Quoted By Gamaliel Bradford, Bare Souls (New York: Harper & Brothers, 1924), P. 71.

(*) يصور توفيق الحكيم في روايته الشهيرة «عودة الروح» العلاقة بين الشعور بالفشل والنزعة الثورية، حين يقول: «إن هؤلاء الثلاثة الذين كانوا قبل قليل ساكنين كأصحاب بنك أفلس تخنقهم الكآبة والضيق، كأنهم في سجن من نفوسهم لا يستطيعون منه خلاصًا. هؤلاء الثلاثة ما كادت الثورة (ثورة 1919م في مصر) تنفجر حتى انفجروا معها. وإذا هم يروحون ويغدون منهمكين فيها وفي حوادثها المتجدّدة المثيرة للحواس، وإذا هم قد ذهب انقباضهم ووحشتهم، وحلَّ محله الاهتمام والكفاح والتحمس... عجبًا! أترى كان لا بد من الثورة لتصريف عواطف هؤلاء المنكوبين في عواطفهم؟!!». انظر: عودة الروح (القاهرة: دار الشروق، 2005م) ص427 (المترجم).

من هنا يجيء اعتناقنا البديل قويًّا وعنيفًا. إن بوسعنا أن نثق في أنفسنا ثقة محدودة، أما إيماننا بأمتنا أو ديننا أو عرقنا أو قضيتنا المقدّسة فيجيء عادة، مطلقًا لا يقبل المساواة. إن البديل الذي نتبناه باعتدال لا يمكن أن يحل محل أنفسنا التي نودّ نسيانها ومحوها. لن نشعر أن لدينا شيئًا نستحق العيش من أجله ما لم نكن مستعدين للموت في سبيله. هذا الاستعداد للتضحية بالنفس هو الذي يثبت لنا وللآخرين أن البديل الذي فضلناه على الحاضر الفاسد الفاشل هو، فعلًا، أفضل بديل يمكن تصوّره.